المحاضرة الخامسة: علم التاريخ عند الغرب في العصور الوسطى

تُعد العصور الوسطى مرحلة محورية في تطور علم التاريخ في الغرب، حيث تأثرت بظروف اجتماعية ودينية وسياسية معقدة. في هذه الحقبة، هيمن الفكر المسيحي على مختلف المجالات المعرفية، بما في ذلك الكتابة التاريخية. ويعد قسطنطين أول من أعترف بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات بإصدار مرسوم ميلان سنة 313م ثم جاء من بعده الامبراطور ثيودسيوس 347–395 الذي جعل المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية ومنذ هذا التاريخ أصبحت المسيحية لها التأثير المباشر والبالغ في الكتابة التاريخية فقد تحول التاريخ في أيدي القساوسة والرهبان وأصبح خاضعا للاهوت وبقي فيهم طوال العصر الوسيط أي زهاء الف سنة من الزمان.

وبعد الاعتراف بالمسيحية، ظهر بعض المؤرخين، ومنم أفريكانوس Africanus وكان من أشهر المؤرخين الرومان وأيوسيبيوس Eusebius (340–265م)، وأيضاً القديس جيروم Jerome (420–340)

أما أيوسيبيوس، فكان أسقفاً لقيصرية (في فلسطين)، ومقرباً للإمبراطور قسطنطين، ثبت قواعد علم التوقيت عام 323 م، كتب كتاباً ليكون مقدمة عن التاريخ الأكليركي، وألفه باليونانية، واشتهر الكتاب باسم الحوليات أو التواريخ Chronicles.

يُعد القديس أوغسطين أول من سعى إلى وضع إطار متكامل لفلسفة التاريخ في مؤلفه "مدينة الله". ومع ذلك، افتقرت محاولته إلى النضج الفلسفي، حيث جاءت في صورة لاهوتية تخلط بين الأساطير والقصص الخيالية، استندت الأفكار الفلسفية في الكتاب إلى مصادر فارسية ويونانية وعبرية، حيث جسّدت رؤية تاريخية تتمحور حول صراع بين "مدينة الله" و"مدينة الشيطان"، وهو صراع ينتهي بانتصار الأولى وزوال الثانية.

اتبع بولوس أروزبوس (380–420) النهج نفسه في كتاباته، حيث جمع مادة كتابه بين عامي 415 و418، ونشره تحت عنوان "كتب التاريخ السبعة ضد الوثنيين"، ورغم أن الكتاب كان مشحونًا بالأساطير ومتحيزًا بشكل واضح، إلا أنه احتفظ بمكانته كمرجع تاريخي معتمد في أواخر عصر النهضة إلى جانب كتابات أوغسطين المتعلقة بتاريخ البشرية.

اتسمت كتب التاريخ المسيحية آنذاك بالمبالغات وربط كل الأحداث بإرادة السماء، ويُعزى ذلك إلى الاهتمام المفرط بتوثيق الخوارق والمعجزات، بالإضافة إلى سير القديسين والشهداء وسيرهم الذاتية، وقد انتقلت كتابة التاريخ خلال تلك الحقبة إلى رجال الدين، من قساوسة ورهبان، الذين احتكروا هذا المجال لما يقارب

ألف عام، حيث كانت الكنيسة تهيمن على أوروبا حتى بداية ظهور الدول القومية الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي. ونتيجة لذلك، غلب الطابع الديني على الكتابة التاريخية آنذاك، مما أبعدها عن المنهج العلمي الصارم، فقد تأثرت بالتعصب الديني والانقياد للأوهام، مع مراعاة المصالح الكنسية التي كانت تحدّ من حرية المؤرخين الذين كانوا في الغالب من رجال الدين.

أثر الحضارة الكارولنجية على المعرفة التاريخية:

شهدت الحضارة الكارولنجية تحولاً ملحوظًا في المعرفة التاريخية خلال العصور الوسطى، وسبق هذا التحول عدة مقدمات ظهرت في إسبانيا خلال القرنين السادس والسابع الميلادي. من أبرز رواد هذه المرحلة كان جوليان الطليطلي (ت 690 م)، الذي ألف في مجالات التاريخ واللاهوت والنحو، وجرجوري التوري في فرنسا (538–594 م)، والذي يعد من رموز العصر الميروفنجي الأوروبي.

في القرن الثامن الميلادي، سعى شارلمان إلى توظيف بولس الشماس لأغراض تعليمية ولجمع التراتيل والنصوص الدينية لاستخدامها في الكنيسة. وكلفه بكتابة تاريخ اللمبارديين، وهو ما منحه لقب "أبو التاريخ الإيطالي". وبهذا انتقلت الكتابة التاريخية في العصور الوسطى من نطاق الحوليات الكنسية والتاريخ الديني إلى أشكال أكثر تنوعًا تضمنت كتابة السير الذاتية والتراجم.

تميزت هذه الفترة بانتشار السير الذاتية بين المؤرخين الذين تناولوا المعرفة التاريخية، إلا أن الكثير منهم اعتمدوا على نقل محتويات من كتابات سابقة دون الإشارة إلى المراجع، مما عكس طبيعة تلك المرحلة من الكتابة التاريخية.

أعلام النهضة الكارولنجية:

ركز الإنجلو–ساكسوني ألكوين (735–804م) في مؤلفاته على التراجم والسير الذاتية، مع اهتمام بالتاريخ العالمي منذ بدء الخليقة حتى ميلاد المسيح. وظلت الدراسات اللاهوتية والتاريخية محور النشاط العلمي في عهد شارلمان. أما إجنهارد (ت 840م)، فقد اشتهر بكتابه عن حياة شارلمان، وهو من أبرز أعمال التراجم في القرن التاسع الميلادي.

شهدت هذه الفترة تطور كتابة الحوليات، حيث انتقلت من الحوليات القصيرة إلى الحوليات الملكية المطولة، مما أسهم في ظهور نوع جديد من التدوين التاريخي استمر حتى نهاية العصور الوسطى. وتعددت المؤلفات التاريخية التي تناولت الأحداث السياسية والحروب، مثل كتاب "تاريخ الحروب الأهلية" لنيثارد في القرن التاسع.

في القرن العاشر، برز مؤرخون في ألمانيا مثل ويدوكند، وفي إيطاليا أسقف كريمونا ليتوبراند، بينما تميزت فرنسا بمؤرخين مثل فلودورد صاحب حوليات ريمس وريتشر مؤلف "أربع رسائل في التاريخ".

الكتابة التاريخية في القرن الحادي عشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي

شهدت الكتابة التاريخية في أوروبا خلال العصور الوسطى تطورات هامة انعكست على مضمونها وأساليبها، متأثرة بالتحولات السياسية والثقافية الكبرى في القرون 11–15م. ففي القرن الحادي عشر، أُحييت الأساليب القديمة بفعل أحداث مفصلية مثل الإصلاح الكلوني، النزاع بين البابوية والإمبراطورية، غزو النورمان، والحروب الصليبية. أما في القرن الثاني عشر، فقد ساهمت يقظة شعوب غرب أوروبا وزيادة الاتصال مع المسلمين، لا سيما عبر حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، في إحداث نهضة أدبية وتاريخية، حيث اتجهت الكتابة التاريخية نحو العالمية وبرزت المصنفات باللغات القومية، الحوليات، السير، والوقائع.

في القرون 13–15م، تطورت الكتابة التاريخية لتصبح أكثر علمية، مع انخراط كتّاب غير دينيين في التدوين وتوسّع الموضوعات لتشمل مجالات جديدة. تأثرت هذه المرحلة بما نقلته أوروبا من الحضارة الإسلامية من خلال السفارات، الحروب، التجارة، وحركة الترجمة من الأندلس وصقلية، بالإضافة إلى اختراع الطباعة عام 1450م، مما أسهم في انتقال أوروبا من العصور الوسطى إلى الحديثة. يُعد اعتراف الأوروبيين بإسهامات ابن خلدون مثالاً بارزاً على هذا التأثير.